عندما فاضَ النيل...

للشاعر التركي إبراهيم صبري

بقلم الأستاذ عثمان علي عمل

بحثت عن شاطئٍ حصباؤه تلمع ، شاطئٍ منحدر رحب . وقد غطيت حصباؤه برمل ناعم كريش الطيور . إن اشتياق إليه كالحنين إلى الوطن . فما وقع بصري على شاطئٍ إلا تعلق به . هناك أنعم النظر في الشمس . فما أجمل نزولها في اليم . حينما يحجب نصف قرصها سحاب أسود . تغيب عن الأنظار كأنما تخلع رداء أشعتها . فيخيل إلى الناظر أن السحاب يستر وراءه قواماً جميلاً . وإذا بألوان الأفق تمتد وتعانق سطح البحر . وعلى هذا الجيد الفضي ترتجف أمواج هادئة تخالها رعشات . وبينما الألوان الوردية والبنفسجية والحمراء . تنشئ في السماء قوساً شبيهاً بعالم خرافي ، يبدو البحر كأنما ارتفعت أعماقه . فيتراءى كسماء مقلوبة غاصت في قراره . سماء تتجلى فيها الأفلاك . ولكي تصعد الأنظار إلى هذه القبة العميقة ، تهبط كأنها تنزلق على سطح زجاجي . ومن احتضان البحر للسموات يتجلى في روع الناظر عالم آخر فيرى في ضفافه حدود الأبدية . إن اتساع البحر يجعل الأنظار التي ترى اللانهائي تبحث عن عالم مجهول . أما الآفاق فهي ستار أزرق أسدل على الأفكار ، يحول بين التأمل وبين النفاذ في محيط الكون . إن الثرى إزاء الماء فانٍ . ففي كل قطرة من الماء قوة كامنة خالقة لا تحد .

* * *

وحكم التراب كالعدم فهو نهاية . عجباً لهذا التراب إنه من أسباب الفناء ، وإنه لمن أسباب الحياة !

فننحر الكوم عبطاً في أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حيٍّ نفاخرهم إلا استقادوا فكانوا الرأس يُقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه فيرجع القوم والأخبار تُستمع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحدٌ إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : قم فأجبه . فقام فقال :

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم قد بينوا سُنة للناس تُتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يُصطنع
قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يَطمعون ولا يُرديهم طمعُ
لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مَطمع طَبَعُ
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلعُ

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيع

وقد جاء ذكر أهل البادية أيضاً في سورة التوبة ، فوصموا فيها هذه الوصمة التي جاءت في قوله تعالى (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم)

ولكن الله تعالى بعد أن أطلقها كلمة فيهم ، لأن ذلك شأنهم وديدنهم ، وهو الطبع الغالب ، والحال الظاهر ، عاد فذكر أن قليلاً منهم يخالفهم في هذه الطباع ؛ فقال : (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم)

فهذا ما جاء في القرآن الكريم عن البادية وأهلها ، وهو حرب ظاهر عليها ، وقد جاهد الإسلام حتى قضى على آثارها بين العرب ، وجعل منهم أمة عالمة متحضرة متآلفة متحابة ، وموعدنا بما جاء في القرآن الكريم عن الحضارات القديمة الأعداد الآتية .

عبد المتعال الصعيدي

ومصير المخلوقات إليه . وكأنما الأمواج حينما تتبخر تهرب من الفناء . وهذا الإنسان اليائس الذى يلقى بنفسه فى اليم ، يشتاق إلى حيـاة أبدية فى عبابه ، ليعيش بعيداً عن التراب .

* * *

لا شك أن الشمس قد ذابت اليـوم فى أفق مصر . ها هى أشعتها مادة سائلة ، تنحدر من السماء كأنها حمم تذيب الأرض معها . بحثت كسائر الناس عن خميلة أتفيأ ظلهـا ، فذهبت إلى شاطئ النيل ، وإذا بالنيل قد فاض وغمر . فأين منى الآن قوافل الجمال ذات اللون الأغبر التى ترسم على الشاطئ صورة الخمائل ؟ أين تلك الأشرعة التى ترفرف بين الأشجار كأجنحة فراشة فضية ؟ وأين هاتيك الكواعب الريفيات اللائى يحملن على رءوسهن جرات ذات قوام له دلال العرائس يباهى دلال من يحملنها ، وقـد عكست ظلالها على سطح النيل ... يا للعجب ! إن هذا المـاء كلما تدفق أسرع جريانه . أين هذا النيل الذى رصع جيد (أم الدنيا[1]) بعقد من الياقوت بمجراه الذى تسرى فى أمواجه ثمار النخيل الحمراء ؟ أين تلك المياه التى تفيض بالأسرار كقبلة خضراء تزخر أعماقها بألوان مباينة ؟ أين هـذا النيل الذى يتجلى فى لونه الزمردى إشراق الفجر . هذا النيل الذى تمس أعماقُهُ الأهرامَ والسماءَ والكواكبَ . هيهات ! ليس أمامى الساعة غير نهر من اللهيب . بحثت عن ضفافه فألفيتها قد سالت معه ، وبدا لى أن هـذا الفيضان يندفع كالكارثة . لم يكن هناك فى هذا المحيط اللجى موطئ لقدم ، كأن الطوفان قد ابتلع الغبراء . ها هو النيل يجرى كنهر من الطين انطلق إلى الشمس ، كأن من أجراه يريد أن يبنى أجراماً فى السماء ، وهو يجيش بأمواج فوارة تكاد الشمس وهى فى مغربها تغرق فى تيارها . كأن هناك عاصفة هوجاء تكتسح هـذه الأمواج ، فلا يسمع إلا زمجرة صاخبة . ربما كان فى هذا الطين أسرار ، فهو لا يخرِّب بل يعمِّر . أما حقول بلادى الظامئة فإنها تتلهف إلى قطرات تتساقط من سماء الحظ ، كأنما النيل سحر قد انساب ماء ، فهو يجعل الرمال أخصب من أى تراب آخر . هو يتدفق إلى الحقول وإلى القرى وإلى المساكن ، فالنيل هو مصر ، ومصر هى النيل . ما أعجب هذا السيل ! إنه قوام الحياة . ما أعجب هذا السيل فهو أينما جرى وأينما طغى انبثق النبات واستحال القفار عمارا . قد منح أهلَ بلاده قدرة فوق طاقتهم . هل السحر جاء إلى مصر مع النيل ، فهو كبحر مطلسم غمر أرضاً وجرى نحو محيط فى أغوار الأساطير ، وكأنما الأهرام أحجار رسبت من مجراه فى وادى الشياطين . وإنه ليرد من أرض حزينة ؛ فهو يسيل أحياناً كالدم وأحياناً كدموع تنحدر من عيون تلك الأرض التى حرموها نعمة الأبصار . إنهم يروون أن غادة كانت فى الزمان الغابر تلقى فى عبابه . إننى أعتقد أنها أسطورة ، غير أن هذا الفيضان الذى يدعو إلى الحيرة ، لا بد له من سرّ خارق كهـذه الأسطورة .

ترجمـة

عثمان على نصار

(١) مصر

حكم فى الجنحة العسكرية ١٣٥٢ الغيا سنة ١٩٤٢ بجلسة ٢-١٢-١٩٤٢ بحبس محمد خلف بهناوى بقال بالغيا أربعة شهور شغل والنفاذ أربعة أيام لامتناعه عن بيع سكر عندما طلب منه